حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سمًّا مما نال منه في أيام متقاربة وكان الذي تولى ذلك
من الحسن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس لمال بذله لها معاوية ويقال إن اسمها سكينة
ويقال عائشة ويقال شعثاء والصحيح أن اسمها جعدة. قال أبو الفرج وروى عمرو بن ثابت
قال كنت أختلف إلى أبي إسحاق السبيعي أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن علي عليهما السلام
عقيب وفاة أبيه ولا يخبرني بها فدخلت إليه في يوم شات وهو في الشمس وعليه برنسه وكأنه
غول فقال لي من أنت فأخبرته فبكى وقال كيف أبوك وكيف أهلك قلت صالحون قال في أي
شيء تردد منذ سنة قلت في خطبة الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام
فقال لقد قبض الله في هذه الليلة رجلا لم يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون
لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه ولقد كان يوجهه برايته
فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ولقد توفي في الليلة
التي عرج فيها بعيسى بن مريم والتي توفي فيها يوشع بن نون وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة
درهم من عطائه أراد أن يبتاع بها خادما لأهله ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه
ثم قال أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله
أنا ابن البشير أنا ابن النذير أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير أنا من أهل البيت الذين أذهب
الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول ومن يقترف
حسنة نزد له فيها حسنا فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت. قال أبو الفرج فلما انتهى
إلى هذا الموضع من الخطبة قام عبد الله بن العباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته
فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة فبايعوه ثم نزل عن المنبر. قال أبو الفرج
ودس معاوية رجلا من حمير إلى الكوفة ورجلا من بني القين إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار
فدل على الحميري وعلى القيني فأخذا وقتلا. وكتب الحسن إلى معاوية أما بعد
فإنك دسست إلي الرجال كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله
وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذو الحجى وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول

فإنا ومن قد مات منا لكالذي … يروح فيمسي في المبيت ليغتدي
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى … تجهز لأخرى مثلها فكأن قد

فأجابه معاوية أما بعد فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ولقد علمت بما حدث
فلم أفرح ولم أحزن ولم أشمت ولم آس وإن عليا أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة

فأنت الجواد وأنت الذي … إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يوم اللقا … يضرب منها النساء النحورا
وما مزبد من خليج البحا … ر يعلو الإكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده … فيعطي الألوف ويعطي البدورا

قال أبو الفرج وكتب عبد الله بن عباس رحمه الله من البصرة إلى معاوية أما بعد
فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة تلتمس من غفلات قريش مثل ما ظفرت به من يمانيتك
لكما قال أمية بن أبي الصلت

لعمرك إني والخزاعي طارقا … كنعجة عاد حتفها تتحفر
أثارت عليها شفرة بكراعها … فظلت بها من آخر الليل تنحر

شمت بقوم من صديقك أهلكوا … أصابهم يوم من الدهر أصفر

فأجابه معاوية أما بعد فإن الحسن بن علي قد كتب إلي بنحو مما كتبت به وأنبني بما لم يجن سوء ظن ورأي في
وإنك لم تصب مثلي ومثلكم وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعي يجيب أمية عن هذا الشعر

فوالله ما أدري وإني لصادق … إلى أي من يظنني أتعذر
أعنف إن كانت زبينة أهلكت … ونال بني لحيان شر فأنفروا

قال أبو الفرج وكان أول شيء أحدثه الحسن أنه زاد المقاتلة مائة مائة وقد كان علي
عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل وفعله الحسن حال الاستخلاف فتبعه الخلفاء من بعده في ذلك قال
وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدي من الحسن بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية
بن أبي سفيان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله عز وجل بعث
محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ومنة على المؤمنين وكافة للناس أجمعين لينذر من كان حيا
ويحق القول على الكافرين فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان
وبعد أن أظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص به قريشا خاصة فقال له وإنه لذكر لك ولقومك
فلما توفي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن
تنازعونا سلطان محمد وحقه فرأت العرب أن القول ما قالت قريش وأن الحجة لهم
في ذلك على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاججت به
العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف
والاحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا
واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا فالموعد الله وهو الولي
النصير ولقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا وإن كانوا ذوي
فضيلة وسابقة في الإسلام وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون
والأحزاب في ذلك مغمزا يثلمونه به أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده فاليوم فليتعجب
المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ولا أثر
في الإسلام محمود وأنت ابن حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه
وآله ولكتابه والله حسيبك فسترد فتعلم لمن عقبى الدار وبالله لتلقين عن قليل ربك
ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد إن عليا لما مضى لسبيله رحمة
الله عليه ولاني المسلمون الأمر بعده فأسأل الله ألا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا
به في الآخرة مما عنده من كرامة وإنما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله عز
وجل في أمرك ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في
الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند
الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين
فوالله ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به وادخل في السلم والطاعة
ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك ليطفئ الله النائرة بذلك ويجمع الكلمة
ويصلح ذات البين وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك
حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. فكتب معاوية إليه من عبد الله معاوية أمير
المؤمنين إلى الحسن بن علي سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما